رهان السرد وإنتاج الدلالة

في رواية "كولونيل الزْبَرْبَرْ"

الأستاذ عبد القادر فيدوح

جامعة قطر، كلية الآداب، قسم اللغة العربية

البريد الإلكتروني afidouh@hotmail.com

ملخص البحث

لقد أثْرى الروائي الحبيب السئح روايته كولونيل الزبربر بفضاءات لأمكنة دالة، وأسماء لشخصيات معبرة عن كل ما هو واقعي تاريخي، وسلك مسلكًا وعرًا، دون مهابة منه، بتصور تخييلي جالبا الحيرة للقارئ. والرواية عبارة عن جرد لأحداث الذاكرة التاريخية للجزائر، تحت مسمى(الزبربر)، ورؤية سردية تتضمن وقائع لتجربة اجتماعية واصفة، والكشف عن عالم تاريخية، من خلال علاقة المجتمع الجزائري بثورة التحرير (1954 ــ 1962). وعلى الرغم من فضاء الرواية المتخيل للمحتوى المكاني container view of space بوصفه فضاء جغرافيا / فنيا تجرى فيه الأحداث بكل تفاصيلها، فإنها في المقابل تتضمن في تضاعيفها فضاءات صغرى تتنوع بتنوع دلالاتها وفق سياق النص، وهو ما يطلق عليه بالوحدات الفضائية الصغرى المتساوقة مع عناصر السرد الحكائي، الكلي، للرواية.

الكلمات المفاتيح: السرد، الذاكرة، الخيال، الدلالة، الحبيب السائح، كولونيل الزبربر.

The narration and the semantic worlds in the novel *Colonel Zbarbar*

Prof. Abdelkader Fidouh
College of Arts and Sciences
Qatar University
Email: afidouh@hotmail.com

Abstract:

The novelist al-Habib Sa'ih enriched his novel *Colonel Zbarbar* with significant spaces and with expressive characters of all that is historic and realistic. The novel is an inventory of the

historical memory of the Algerian events, under the name of (Zbarbar). The narrative novel contains the proceedings of a social experience, and the disclosure of a historical world, through the relationship of the Algerian society with the revolution (1954 - 1962). Although the space of the novel imagined as a geographical space, the actions take place in details, it also includes other smaller spaces that are diverse in connotations according to the context of the text, which is called the micro space consistent with the overall story narrative elements.

Keywords: narrative, memory, imagination, significance, Colonel Zbarbar.

في كولونيل الزبربر حَفْزٌ على الترغيب في تحسين المهارت اللغوية، والطريق إلى إصابة الوصف فيها أجود، والحرص على استدعاء ذاكرتك بها أجدى، وأنَفَتُك بالوطنية منها أعظم.

عبد القادر فيدوح

بلاغة المتخيل/الرؤية الراجعة[1]

ما من شك فيه أن كل نتاج تصوري للخطاب يستمد مسوغات رؤاه من تشخيص المرئي، بعد أن يستوعب الفنان سبب وجوده في ذاته، ويتعذر التعبير عنه بالقصد، الموصِل إلى المراد الطافي؛ لأن الاستدلال بالتصريح لواقع الحال، مهما كان عظيم الثقة بنفسه في نظر المبدع، يبقى خاضعًا لما تنتهي إليه الرؤيا الكشفية، وأن النهج الذي يسلكه هذا المبدع أو ذاك في نتاجه الفني ينبني على وجه الدقة فيما هو متوارٍ في المحسوس من أمور الحياة، أو لا يستطيع النظر الدارج على المألوف اكتشافَه، من منظور أن ما قد يبدو حالة عرضية لعامة الناس، ولا سبيل إلى إدراكه، يبدو وميضًا لدى المبدع، وإشراقًا لقريحته الإبداعية التي من شأنها أن تعيد ترتيب الحقيقة بما يستوجبه المأمول المرجو، وليس بما هو عليه المعمول السائد. والمبدع أكثر الناس نباهة لكشف ضروب التباينات التي تقع في حياتنا، وتوضيح الإشكالات الملتبسة التي مرت بها سرديات التاريخ؛ ليعود القهقرى بتقنية الاسترجاع؛ أي بأسلوب الارتجاع الفنِّي؛

[1] الرؤية الراجعة: تفاعل أحداث ذاكرة الماضي في الأداء، بين **التطور** بناتج تحولاته السلبية أو الإيجابية، **والتطوير** بناتج تحسين الفعل المتوخى، وتعزيزه في الاتجاه الموجِب.

لتحقيق العديد من المقاصد، لعل من أهمها إسقاطات الزمن الماضي على الحاضر، أو استثارة الحاضر لاستدعاء الذاكرة الفائضة بالابتئاس، وهو ما قامت عليه كولونيل الزبربر.

وإذا كان المتلقي ينجذب إلى هذه الذاكرة الاسترجاعية بكل ما تحمله من دلالات، فلأن سردية " كولونيل الزبربر" تقوم على نظام تداني التباينات بالاستدلال والنظارة، والتروي بمدى تجارب الماضي، بفرادته السردية الدلالية، وهو ما شدَّ ذائقة المتلقي في الجمع بين المقول واللامقول في عالم أسرار الثورة، اجتمع فيه الأسلوب الخبري بالإنشائي من قبيل مستتبعات الحقائق، ومعنى ذلك أن طابع التصور الإبداعي يزيد من قابلية الفهم لتحديد الرؤية الراجعة، التي جاء استخدامها، لتوضيح الوظائف الدالة بصيغ اللامقول في كثير من أحداث ثورة التحرير. ومتى تصور المبدع أن الحقيقة تحتوي على قدر من المداهنة، أو الميل عن الجادَّة، وفقا للخطة المرسومة، فإن ذلك يفترض وجود براءة للحقيقة المغيَّبة، وهو ما يدعونا إلى الاعتراف الضمني بأنه لا وجود لتماثل الشيء في نفسه، وإنما يكمن في افتراضه مع القياس بالاستدلال صِنْوَ الشيء الآخر تقديرًا، أو حقيقة، اعتقادًا منا أن كل صورة مهما كانت واقعية فإنها تصبح في نظر المبدع افتراضية بتمثلاتها التخييلية، المبنية على الإثارة، والنابعة من " الإنتاج الذّهنيّ للتّمثّلات المحسوسة التي تختلف عن الإدراك الحسّيّ للحقائق المتعيّنة من جهة، وعن مفهمة الأفكار المجرّدة من جهة أخرى"[1].

إن إدراك وزن المتخيل في كولونيل الزبربر يتجاوز الصورة النمطية التي عرضها علينا السرد، أو تلك التي نتلمسها من الوقائع، والأحداث، وتفاعل الشخصيات، بل من خلال ما تتركه في المتلقي من تأثير متبادل بين الماضي والحاضر، بما في ذلك إدراكات الأجيال الواعدة بتحصينهم بهوية ثورتهم؛ لما في هذا التوثيق المسرود في "كولونيل الزبربر" من تأثير الممكن في سناء ثورته الماجدة، وإدراك صورة ما حدث فعلاً من مزايا ومثالب، ومعرفة مضامين الاستقامة في الإنصاف والنزاهة، من عَدَمِها، في كثير من تعاريج الأحداث، ومنحنيات المضامين، من المناقِص، والشوائب، وليس في ذلك عيب؛ لأن مطالب قوة معرفة الأجيال بحقيقة ما جرى تعزز أطوار التجربة، كي تحيط بالأفق، وما عدا ذلك من الالتفاف على الحَنَق في تأريخ الثورة يربك الوعي الجمعي المتوارث تباعًا. ولا سبيل إلى ذلك بحسب تعبير فرانسوا ليوتار **Lyotard, Jean-François** إلا بمقدار ما يفسح به الخطاب مسافة يصطنع له منها مرجعا، يُدخلنا

[1] Jean-Jacques Wunenburger ,*L'Imagination* ,PUF, « Que sais-je ?, Paris, 1991, p. 3

تجربة الرؤية"[1]. ومن هنا، تكون كل ثقة مطلقة ــ بأية مرجعية ــ لأي ثورة بمثابة نتاجٍ دَعِيٍّ بما ليس فيها، أو منها، ونظرة وحيدة اعتقادية، عقد عليها العقل والقلب بإحكام، وكأن ليس من منازع في أمرها، ومن دون أن يكون لها نظرة نقدية معارضة قد تحاور أو تحاجج سابقتها. والحال أن كل دراسة تاريخية ــ لأي موضوع ــ تكون موضع تساؤل، وتباحث، وتناظر، سواء مع المناضلين، أو المؤرخين، أو علماء الاجتماع، وبخاصة مع المبدعين الذي يضفون على التاريخ مسحة "التصور المتخيل" بدافع إبراز ثوابت الثورة ووجوهها المتغيّرة حسب سياق المتخيل، امتثالا لمقولة إنّه "**لا يوجد تاريخ للمتخيّل بل يوجد متخيّلات تاريخيّة**"، واستنادا إلى هذا، فإن حقائق السرد ليست حقائق التاريخ، فالمؤرخ قد يحذف أو يعدل أو يتراجع عن حكم ما إذا تبين له أن هناك وثائق أو شهادات جديدة تثبت عكس ما سبق تدوينه، أما العوالم التي يبنيها السرد فلا أحد يستطيع التنكر لها أو التشكيك فيها؛ لأنها توجد خارج الزمن "الواقعي" وخارج منطق قوانينه"[2]

إن القول بنزاهة أي ثورة على نحو العصمة من كل دَنِيَّة، ونَقيصَة، أو مصونة ذاتيًا، من أي مكروه، أمر لم يثبت تأكده في تجارب كل الثورات، ويحتاج إلى القناعة بالأصالة والتصديق بالإيمان لأي ثورة، والإخلاص لها، من منظور أن الإيمان يتبع القناعة، وحين يمتلك الأنسان ذلك يمتلك معه الوعي بالقصدية، والوعي بمعرفة الآخر، والوعي بالمَرَامِ، وبالمجمل الوعي بمعرفة هوية الثورة. وفي ضوء ذلك يحضر المغزى الذي يصنع الخبرة، وما أحوج ثورة التحرير ــ في حينها ــ إلى رَصْفِ وعي المناضلين بما يحيط بهم، وينتظرهم، بخاصة أولئك الذين لم يجدوا في هوية الثورة مكانة للتأمل، أو حظوة للرشاد، أو منزلة للهدى والاستقامة؛ لأن الوصول إلى السبيل لا يمكن تحقيقه بدون وساطة، وأن النضال لا يتأسس على الختل، والإفك، والمداهنة، ولعل ثورة التحرير في شقها المغيب، أو المتناسي الذي رسمته "كولونيل الزبربر" كانت بحاجة إلى وعي الضمير؛ لتكوين "معنى النضال". وإدراك المناضل الدور المتوقع منه، أو المسند إليه، لا يعدو أن يكون قطرة من فيض الواجب الوطني؛ وإلا ما معنى أن

---

[1] جون فرونسوا ليوطار، Discours, Figures، نشر Klincksieck، سلسلة Esthétique، باريز، 1971. عن، يوري إيزنزويك: الفضاء المتخيل، ترجمة: عبد الرحيم حُزل، مجلة فكر ونقد، عدد 33، المغرب.

[2] سعيد بنكراد السرد الروائي وتجربة المعنى المركز الثقافي العربي ط2008/1 ص218 .

يستشري التطهير مما وقع من "تصفيات في جبهة التحرير، وما بعدها" على رأي مضرب المثل: " الثورة قطة تأكل أبناءها".[1]

وعلى الرغم من فضاء الرواية المتخيل للمحتوى المكاني، بوصفه فضاء جغرافيا / فنيا تجرى فيه الأحداث بكل تفاصيلها، فإنها في المقابل تتضمن في تضاعيفها فضاءات صغرى تتنوع بتنوع دلالاتها وفق سياق النص، وهو ما يطلق عليه بالوحدات الفضائية الصغرى المتساوقة مع عناصر السرد الحكائي، الكلي، للرواية، وفق العوالم الدالة.

لقد أثْرى الروائي الحبيب السائح روايته كولونيل الزبربر بفضاءات لعوالم دالة، بأمكنة وأسماء لشخصيات معبرة عن كل ما هو واقعي تاريخي، وسلك مسلكًا وعرًا، دون مهابة منه، بتصور تخييلي لعوالم افتراضية ممكنة الحدوث، جالبا الحيرة للقارئ، وفق الأبعاد التي اتخذها السرد الدلالي الذي كشف عن كل الفرضيات المغيبة في الذاكرة التاريخية، كما رسمت الرواية عوالم متفرعة على كل الاحتمالات، بوصفها تجاوزت المعنى الدلالي في ذات النص إلى المعنى الدلالي بما يفترضه المعطى، أو الممكن في الوجود، على نحو ما عبر عنه غريماس في قوله:" "يجب أن نفهم بالبنية الدلالية ذلك الشكل العام لنظام العوالم الدلالية– المعطى، أو الممكن، ذي الطبيعة الاجتماعية والفردية (ثقافات أو أفراد) والسؤال عما إذا كانت البينة الدلالية ماثلة في عالم الدلالة أو تحضن هذا العالم[2]"

والرواية عبارة عن جرد لأحداث الذاكرة التاريخية للجزائر، تحت مسمى(الزبربر)، ورؤية سردية تتضمن وقائع لتجربة اجتماعية واصفة، والكشف عن الذاكرة الجمعية لمعالم تاريخية، من خلال علاقة المجتمع الجزائري بثورة التحرير (1954 ــ 1962)، من منظور أن هذه الذاكرة" تؤدي دورا كبيرا في ضمان الاستمرارية الثقافية التي تمكِّن جماعة ما من الحفاظ على إرثها الثقافي والمعرفي المشترك، وصيانته من النسيان والتلاشي، والدمار. وهكذا تبدو الذاكرة بمثابة ذخيرة ثقافية حية تستوعب، باستمرار القيم الثقافية لجماعة ما، وأشكالها التعبيرية والرمزية؛ أي كل ما يميزها من غيرها، ويَلحم سَدَاهَا، ويبلور موقفها من الوجود[3]، وإذا كانت الذاكرة تحفظ ماضي المجتمع، بالنظر إلى ما له من تأثير على الحاضر والمستقبل، فإننا نلاحظ أن لها صلة بالتأمل الفكري، بوصفها تتفاعل مع جميع المعارف والأنساق الثقافية.

---

[1] كولونيل الزبربر، ص 271.

[2] ج.غريماس: البنية الدلالية، ترجمة ميشال زكريا، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 19/18 السنة 1982، ص97

[3] ينظر، محمد الداهي: صورة الأنا والآخرفي السرد، دار رؤيا للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 2013، ص 203،204

وليس موضوع الصورة الفنية بمعزل عن الذاكرة الوجدانية، بخاصة حين ترتبط بالخيال. أضف إلى ذلك أن الذاكرة في صورها إنما هي ضرب من التخيُّل، ومتى ما أعمل المؤرخ، أو المفكر، أو المبدع، نظره في صورة الذاكرة إلا وأدرك الصلة بينهما، من حيث إن الذاكرة في منظورنا مربوطة الصلة بالخيال القادر على أن يستعيد تجارب الذاكرة من منظور إبداعي. ومع أن الخيال يقابل الذاكرة، فإن العامل المشترك بينهما هو "الصورة"، وأن هذا التلاقي نابع من أن الرؤية فيهما تتضمن في داخلها صورة كشفية، مع الذاكرة تكون كشفية حقيقية، في حين تكون مع الخيال كشفية إبداعية، وفي مثل هذه الحال" علينا القول ــ مهما كان الجانب الذي نركز عليه في الذاكرة ــ إن هنالك أمتنَ ما يمكِّن من الروابط بينها وبين المخيلة، ويستحيل في الواقع الفصل بين هاتين الطاقتين، ولعل خير من أكد هذه الرابط جان بول سارتر في كتابه "التخيل" حيث استعار أغلب أمثلته عن الصورة من صور الذاكرة؛ لأننا نفكر ــ سواء أثناء التذكر أم التخيل ــ في أشياء لا تقع في متناول نظرنا أو سمعنا، كما أن لها معنى بالنسبة إلينا، وهي قابلة للتشبع بعواطف قوية. نستطيع القول إننا نستخدم عند تذكر شيء ما المخيلة، ونستخدم في تخيل شيء ما واستكشافه خياليا الذاكرة، وفي هذه الحال لا يمكن أن يوجد تمييز حاد؛ إذ يمكن التفكير بالمخيلة، شأنها في ذلك شأن الذاكرة[1].

لقد كان تاريخ جبل الزبربر مرجعية لسرد الرواية، ومادة خصبة في تضاعيف النص، بوصفه نصا تاريخيا، حاول أن يعيد نسيج الانتماء لتاريخ ثورة التحرير في الجزائر، حيث كان التاريخ هنا خادما للفن الروائي، وسادِنًا للذاكرة، بدافع إحياء مجد ماضي المنطقة، وما يضيئ جوهر حقيقة هذا المكان الذي حظي بقيمة تاريخية. وليس غريبا أن يتناول الروائي الحبيب السائح جبل الزبربر بهذا التماثل التخييلي لإظهار القيم الثورية في تلك المنطقة، وما انتابها من مزالق عمتها بعض المخاطر، بطرائق فنية يطغى عليها استحضار الذاكرة الجمعية في سياقها الزماني والمكاني، وبما تنطوي عليه من قيم كانت تسعى ــ حينذاك ــ إلى تحقيق قيمة جوهر الإنسان في مطالبه المثالية.

ولعل السؤال المطروح قبل الشروع في التحليل، هو في أي حقل يمكن تصنيف "كولونيل الزبربر" من أصناف الروايات في الأدب الجزائري؟ هل هي ضمن الروايات التاريخية؟ أو تدخل في سياق الروايات السيرية؟، أو الرواية الوقائعية، بسبب طبيعة انشغالاتها؟ أو هي فوق كل هذا، فيما يمكن أن

[1] ينظر، ميري ورنوك: الذاكرة في الفلسفة والأدب، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2007، ص 118.

نطلق عليه رواية سرد التاريخ المأساوي؟ أو رواية الملحمة المقنعة؟ أي تلك "الرواية المتعددة المفاتيح " التي تنفتح مغاليقها إذا ما عُثِر على المفتاح المناسب (ومن هنا جاءت تسميتها بالفرنسية (***Roman à clef***) وتدور عادة حول أناس حقيقيين "يقنعهم" الروائي لغرض التمويه. وعلى هذا النهج سار الانكليزي توماس لوف بيكوك (1785 – 1886) في عدد من رواياته الفكاهية التي تناولت شخصيتي الشاعرين شيلي وكوليردج. وطبيعي أن كون أحد شخوص الرواية شبيهًا بشخص حقيقي لا يقضي إلى الحكم الحتمي على تلك الرواية بأنها مقنّعة، فالتصنيف يعتمد أساسًا على استكناه السمة الأساسية التي تطبع الرواية برمتها، لا على وجود تشابه "قلّ أو زاد" بين شخصية في الرواية وشخصية حقيقية[1].

والحال، أن رواية كولونيل الزبربر تتجاوز مسمى الرواية المألوفة إلى ما يمكن أن نطلق عليها "رواية التاريخ السياسي" بالنظر إلى ما يستدعي صفاتها المعرَّفة بذاتها؛ لما تستحقه الذاكرة من عناية، لذلك نظرنا إليها على أنها رواية مختلفة عما أنتجه ــ معظم ــ المخيال الإبداعي في الأدب الجزائري حتى الآن، واختلافها عن باقي الروايات له ما يشفع له من التميز في جرأة طرق المسكوت عنه، الذي كان ــ وما يزال ــ حقلا ملغمًا، وهو ما جعلها تخلق فرادة تميزها، بوصفها خطابًا مضادًا لجهات معينة استهوت لنفسها تسويق الثقافة الشمولية ذات الطابع النفعي، واصْطَفَت الميل عن جادَّة الصواب، والزيغ عن استقامة الحق، بفعل رداءة تسيير الكثير من النخب السياسية، ومن هنا كانت "كولونيل الزبربر" متفردة في كشف الحقيقة المغيبة، قسرًا، في حق مجتمع بذل النفس والنفيس، وأعطى الصبرَ والوسعَ، على نحو ما عبرت عنه الآراء المضادة، بين ما هو عليه، وما ينبغي أن يكون عليه الأمر في السرد المطابق لواقع مجريات تاريخ الجزائر الحديث، فالرواية تجمع بين صحة الوقائع وعَمَاية التاريخ، والفظاظة في القيادة، والرعونة في الزعامة، من بعض المسيرين بعيد الاستقلال، كما أنها تجمع بين تماثل الواقع وتمثيل المتخيل، حتى لكأن المدة الزمنية الموصوفة تاريخيا تناظر زمن تلقي الرواية، وأكثر من ذلك، أحيانا، قد تتداخل الأزمنة الاسترجاعية في رسم صورة الحاضر المَهيض، وكأن أحداث الماضي ماثلة بأحداث اليوم.

إن الحقل الدلالي الذي تثيره كولونيل الزبربر في موصوفاتها السردية المتباينة، يتبدى ــ في نظرنا ــ في معيار "**أخلاق الواجب**"؛ أي جعل النصر هدفا أخلاقيا قبل أن يكون نضاليا؛ لضمان معيار رعاية المستقبل في بناء الوطن، غير أن مقابلة الواقع بجهامة، وغياب بنية الحوار، كرس ثقافة التبدّد، وهو ما كان يحرك مصير الشخصيات للترابط بين الفعل ورد الفعل، أو بين ما هو قائم وما كان يفترض أن يكون

[1] أمجد حسين: قراءة في الرواية، صحيفة المدى، الرابط ، http://almadapaper.net/

عليه الوضع، أو بين فرض واقع، والرغبة في افتراض نمط حياة قائمة على التوافق والاختلاف، لكن وجود التفاوت الجوهري بين مطالب الشخصيات، بخاصة الشخصيات المتعسفة، كان بمثابة المحور المفصلي للتباين بين هشاشة الذات الشامخة، في مقابل الذات الأخرى المحقة، والساعية إلى ما هو محمود ونبيل، أو بين كولونيل الزبربر، بجميع محمولاته الدلالية من الذاكرة السردية الجغرافية والذاكرة النضالية، وبين مناوئيه الذين أسهموا في خلق الاختلاف، واختلاق التقاطع، من غير مبرر؛ الأمر الذي خلق بنية نضالية غير مستقرة، وتنافرًا بين المواقف النزقة، لدى كثير من الذين رأوا في الغلو والطيش قصدهم، فتداخل مفهوم النضال بين ما كان يحصل بشكل دراماتيكي، وما كان يفترض أن يتم التوافق عليه برؤية البصيرة؛ لترجيح ضمير الوطن، تحسبًا للوضع المتصوَّر له فيما يمكن أن يكون قاعدة للرعاية، والتشييد، والعدالة، بالنظر إلى احترام معيار واجب البناء، امتدادًا لمعيار أخلاق واجب الثورة. ولكن، هيهات لِما منيت به الأجيال ــ من المِنَّة والإنعام ــ إبان ثورة التحرير، وبعد بناء الجزائر الحديثة، وبين هذا وذاك ضُلِّل الفعل في مزاولة ما لا فائدة فيه، وضاع وطن الإنجاز بإضاعة جيله الواعد الذي له من الكفاية ما يرجى منه بلوغ الأسباب، لكن ذلك لم يكن سوى مجرد ادعاء، بنى مشاريعه من غير طرق مشروعة، في قالب صروح متعلقة بالأوهام، وفي أكثر تقدير مجسمة في تصاميم، على أوراق، أو في صورة اختلاق، أو هكذا تصور كولنيل الزبربر: " ها هو نصف قرن يمر على أول نوفمبر ولا شيء كتب" .....إنك بعد خمسين سنة تعاين أنك أصبحت على فجيعة توقيعك؛ لساسة الاستقلال وأرباب الدولة صكًّا على بياض ليستولوا على تاريخ حرب تحريرٍ كتبه بدمه، وغناه بآلامه شعب بأكمله"[1]

إن نظرة فاحصة بغرض التواصل مع تصور سرد الأحداث فيما تضمنته الرواية، من وقائع مريعة، يجعلنا في ريبة من الوقوع في الإيهام، بالنظر إلى سرد هوية بعض المواقف في موصوفات ثورة التحرير، نتيجة الصراع الذي دار بين حركة مقاصد الأحداث، وتباين المواقف، وارتداد بعض الثوار إلى صف العدو، وغموض ملابسات الظروف وما أحاط بها من شكوك، بخاصة ما يتعلق باستشهاد الكثير من القيادات الرشيدة للثورة بفعل ما أضمر من إحْنة، وبغضاء، أدت إلى الانتقام، نجهل مضامين دسائسها، وفحواها، بحسب ما ترويه الرواية.

تبدأ "كولونيل الزبربر" بتفكيك الوظائف الدالة لكل قيمة من قيم بناء ذاكرة الجزائر الحديثة التي أوصلها بعض الكائدين ــ على وجه التحديد ــ مع ذروة مأساويتها إلى " **فقه التيه** "، وانتهاج سبيل

[1] الحبيب السائح: كولونيل الزبربر، دار الساقي، ط1، 2015، ص 57.

الصَّلَف، وتعميم فكر الضَّلال، لغايات من صناعة كيدها المضر، في جميع المجالات، وهو ما عبر عنه كل فعل سردي في كولونيل الزبربر، أحال المتلقي إلى تراتبية تساؤلية حيرته في تَكْنِيَةِ شخصية " طاوس" الدالة على الخصب، والنور، والأمان، والرغبة في التجديد؛ ما يعني أنها الشخصية الواعدة في صورة جيل جديد غابت عنه حقائق كثيرة، وحُرِم من المتأمَّل برؤيا مكسوة بالاخضرار والإشراق؛ لبناء وطن آمن. ولعل ذهول "طاوس" مما تبيَّن لها من وقائع، قرأتها في مذكرات جدها" مولاي الحضري/ بوزقزة"، ما يجعلها تقع تحت تأثير الدهشة من هول ما تكشَّف لها في هويتها السردية، المحيِّرة، التي لازمتها أحداث مؤلمة، وصلت إلى حدٍّ يصعب تقبله من الأجيال المتعاقبة.

إنه لمن الصعب تخطي الرؤية السردية الفاصلة بين ما وصلنا من بعض كَتَبَةِ ثورة التحرير في ترسيخ نزاهتها المطلقة، وبين ما روته كولونيل الزبربر من تجيير بعض الوقائع لصالح العَسَف من غير رويّة، وهو ما بدا يلوح في أفق بعض المذكرات التي نفت صفة الإطلاق على وَجَاهَةِ الثورة في حق أبنائها البررة، ومن كثير من الزعامات الرشيدة في يمينهم بالطاعة والإخلاص لها. ومن ثم، فإن معيار تعميم النزاهة المطلقة كان تشريعا يغلب عليه طابع الذاتية، في كثير من المواقف؛ الأمر الذي أدخل الثورة الجزائرية في إشكال تداخل النية الصادقة بعفويتها مع النية المبغِضة بالفعل التنظيمي الممسك بزمام الأمور، وفق رؤى خاصة تسعى إلى إزاحة كل ممكن جائز، أو مستطاع، لهذه الثورة عن الجادَّة، والإعراض عن هدف الهبَّة الشعبية في ثورته ا وانتفاضته ا، وفق العمل على تعزيز المبادرة بالفعل الإيجابي. والحال هذه، أن كثيرا من قادة الثورة ــ بحسب ما صورته كولونيل الزبربر ــ قضوا نحبهم بمسوغ واهٍ، ومن دون مبرر مقنع ، فعُدُّوا من الآثمين، أو الخونة، والأمثلة على ذلك كثيرة تعرضها كولونيل الزبربر، كما هو الشأن بالنسبة إلى الطالب كمال الذي ترك وراءه الجامعة والتحق بصفوف جيش التحرير، وعبر عن فرحته بقوله:" صعدت لأشارك في تحرير بلدي" سرعان ما اتهم بالخيانة عن غير حق، فكان موته تحت التعذيب قاسيًا ، حين وضع فوق صهد النار حتى تفسخ بطنه وتقاطر شحم أحشائه، أو ذلك الجندي الذي علق من معصميه إلى فرع شجرة عاريا، فأشهر جندي آخر حربة بندقيته، داغرا إياه..؛ لأنه أقام علاقة مع جندية، ربطت من رجلها حتى رقبتها نصف عارية إلى جذع شجرة، فأخذ جندي ثان ينغز بإبرتين جبهتها فحاجبيها وخديها...وهذا الذي فقئت عينه؛ لأنه يقرأ الصحف الفرنسية، أو الشخص المدني الذي بكلابة اقتلعت أظافر يديه؛ لأنه اتهم بالزنى ثم ذبح من القفا، أو ذاك الذي نتفت شاربه نتفًا؛ لأنه لم ينته عن تخزين الشمَّة، والآخر الذي جذع أنفه؛ لأنه شوهد مع متعاون،

وذاك الذي جُبَّت حشفة عضوه التناسلي؛ لأنه كان يتردد على ماخور في المدينة [1]، والأمثلة على ذلك كثيرة، بخاصة مع من كان يخالف رأي قادته، المشكوك في نزاهتهم.

وليس في هذا التوصيف إلا إشارات ضمنية، تمكننا من إلحاق بعض مواقف ثورة التحرير بمفهوم "**تعيين التفريد**" وهو المصطلح الذي نتوخاه لتبرئة البررة من كل نقيصة غير مسئولة، بخاصة ممن حاولوا تشويه سمعة مناضلي الثورة، وأعاقوا مسيرتها كالأبناء العصاة في مخالفة والديهم، وعصيان الطاعة بانتهاك النظام، والخروج عن المكانة التي استوى عليها موقف الثورة؛ بما هو متواضع عليه بمرجوح الأهمية والقيمة، بعد نضج وعي الشعب الثائر ؛ أي بمعيار نهج الثورة وفق مطمح مستوى المسؤولية. ومن ثم، فإن " **تعيين التفريد**" في الثورة كان بمثابة الهامش الذي شوش على المركز، أو الاتجاه المُباين، الذي عصف ــ في مواقفه من جانب مضاد ــ بفكرة التعايش، حيث الثورة لم تكن تتوقع من هؤلاء العققة هذا النزق العَتِه في خطه المائل إلى الاعتداء على الإخوة، حيفا وبهتانا؛ الأمر الذي عقَّد من تنافر مواقف الخصوم والضحايا، وأبعد حدود التعايش ، بدافع نزعة " **التفريد**" التي رجحت كفة الاستئثار والاستبداد بالتسلط، المغلوط، لعل دافعها الأساس فرضية الطمع "في استحقاق ما، وهو ما جعل بعضهم يصرف النظر عن شجاعتهم وذكائهم وإخلاصهم، إضافة إلى وقوعهم تحت تأثير إملاءات جهات تطلب مقابل مساعداتها ولاء أيديولوجيا، ظلوا أسارى نظراتهم الضيقة، حبيسي نعراتهم الجهوية، ومعطوبي النفوس بحسدهم وغيرتهم[2]. والحال، أن لعبة القفز على الحبلين لتمكين التَّفريد، لا تقضي على تشويه صورة الآخر، والتشنيع به، فحسب، بل تُودِي به، بعد إبعاده وتعريضه للانتهاك والانتقاص، على الرغم من ترغيب انصهار كل الخيارات في م جموع الصفات والخصائص الموضحة في مبادئ "جبهة التحرير الوطني" التي دعت إلى إبعاد كل التقسيمات الثقافية، واللغوية، والعرقية، والإيديولوجية، والقبلية، امتثالا للتسريع في مرام حق تقرير المصير، والكدّ على تحقيقه ــ على الرغم من ذلك ــ تؤكد التجارب أن في كل ثورة سوسًا ينخر عصب الصفوة، ويمنع التدبر من الإسهام في وضع الخيارات الصحيحة قيد التداول والتباحث، وهو ما يجعل الوضع قائما بين تحدي الترجيحات البديلة التي غالبا ما تميل إلى الدمار والتخريب، من دون مراعاة التكلفة الإجمالية لمطالب الثورة المتوخاة، وبين معايشة التجربة النضالية النزيهة بصورتها التي تؤهلها لمقاومة الاستعمار. وكل فعل من هذه الثنائية يتضمن علاقة متواشجة داخل الخطاب الثوري، في ضوء مسعى النضال الذي انتصر ــ في الأخير ــ لحق وّجاهة الثورة، وإحكام

[1] الحبيب السائح: كولونيل الزبربر، دار الساقي، 2015، ص، 90 ــ 92

[2] ينظر، المصدر نفسه، ص 86.

مسيرة النضال في أن يكون من أحد أهم خصائصه الحيد عن صراع الأفكار الوخيمة في مقابل التعهد بمبدأ الالتزام المجدي، الذي ظل ملازما لأفكار المناضلين الأحرار، بحسب ما عبر عنه "مولاي بوزقزة المهوَّس بهاجس الحرية:" نحن نعيد تاريخ الجزائر إلى مساره. نحن نصنع حدثه الجديد" [1]، وكأن الحرية في مفهوم النضال، هي التي تحدد كيف يعيش المرء لأجلها، ومن ثم فهي نتيجةٌ لتحقيق الأمان، وفق رؤية مولاي بوزقزة، ولإحراز ذلك ليس هناك من سبيل إلا في تثبيت مبادئ ثورة التحرير الوطني التي قادتها الجبهة، وسعت إلى التغاضي عن حيز الارتباك المفسِد عليها، وإفشال المستباح من كل جور متفشٍ، ومؤثر، من عنف التسلط الذي كاد يصل إلى حدِّ الفتك بالثورة.

إمكان الإرادة /وميض التطلع

يبدو أن بناء سرد "كولونيل الزبربر" برؤيتها الجريئة، وسردها الوثيق، ولغتها المكينة، والمتماسكة، جاء نتيجة خبرة معيشة، استمدها الحبيب السايح ممن عاشوا تجربة الثورة، ناهيك عن طلب المعلومة من مصادرها الموثَّقة، الأمر الذي جعل الرواية بديلا أقومَ من غيرها من الروايات التي تناولت تاريخ الجزائر الحديث؛ لأن مع كل تجربة قصصية في "كولونيل الزبربر" هناك مسحة تأملية تستدعي تفكير المتلقي بأن يتقصى الحقيقة، ويتحرى صحة ما جرى. ولعل الرواية تسعى إلى تلمس الاهتداء إلى معرفة سعة معطيات الظروف التي أثرت على مسار ثورة التحرير، واستكمال نواقص ما كان يتعلق بها من تفاصيل أسهمت في إحداث الفرقة والانتهاك والانتقاص. والحق أننا نجد في الرواية ما يستدعي التقاء وجهتي نظر متباينتين؛ بين ما هو إيجابي في حق الثورة وما هو سلبي، ما يعني أن الحبيب السايح استطاع أن يصوغ الأسس النضالية الفكرية، في مواجهة الأسس المباينة الممانِعة في نقطة تماس لسَعْيَيْن مصطرعين حول أيُّ الاتجاه أقوم، أو أيهما أكثر عدلاً في حق الثورة. وكان على وعي الثورة الناضج أن يستهدي المخالفين ــ دوما ــ الطريقَ السليم لتمكين الثورة من النصر، والإيفاء بالعهد.

لقد جاءت "كولونيل الزبربر" بمعنى ما امتدادًا للصراعات المتباينة، حيث اِئْتِكَالُ بعض القيادات نظير تفاوت المواقف التي كانت تصل حَدَّ التضارب، وحِدّة التصادم، خاصة مع اشتداد أوار الخلاف، قبيل نهاية حرب التحرير، حين تفاقم الأذى على كثير من الثوار الأحرار، على حد ما جاء في الروية:" فكان ذلك أعظم عذاب يمكن أن يسلط على آدمي، كان الجلاد لا يدري غالبا لماذا يفعل ذلك في حق غيره ممن عرفهم أحيانا، وقاسمهم شظف الحياة في الجبل وهول الحرب، لكنه كان يعرف أنه لا يبقى له أي خيار حين يعيَّن للقيام بالمأمورية غير التنفيذ، وإلا دفع حياته ثمنا لتردده .... إنهم رفاق حرب، أو

[1] المصدر نفسه، ص 61.

أشخاص عاديون جميعهم لا يعرفون غالبا لماذا هم يتعرضون لتلك القسوة كلها، وكان يمكن، كما كانوا لا ريب تمنوا أثناء تعذيبهم أن يُقتَلوا بشكل إنساني إن كان في قتلهم عدل... تلك هي الحال، فحرب التحرير، خاصة، تحمل معها أيضا قذاراتها"[1]

إن محاولة فهم ما جرى من تفاصيل في ثورة التحرير، كان من المتعذر الحصول عليه لدى المسرود له بالمعنى السديد، لولا جسر " كولونيل الزبربر" الرابط بين الماضي والحاضر في علاقة تفاعلية، كما أن المعنى المقصود في الرواية يفترض أن يكون المؤشر الوامض لجوهر رؤية المتلقي للتفكر برويَّة في ماضيه الماجد، وفي علاقته بما يحيط به، وفيما لحقه من تبعات كان لها العلة الشاغلة من أولي الضرر على الأجيال المتعاقبة، من مضاغفات عطلت الكثير من مسار بناء الوطن الحلم؛ بالنظر إلى ما آل إليه واقع الحال الذي أُوصِل إلى اللامعنى، أو كما عبر عنه الحبيب السايح في عنوان لإحدى قصصه بـــ " **الصعود نحو الأسفل** 1981" حين أبصر في حينها سقوط معنى القصد في كثير من الأيادي ــ الدخيلة على النضال ــ غير المؤتمنة على هذا الوطن العظيم. وتبعا لذلك فقد وجد الجيل الموعود نفسه مذعنا إلى المُنية المرجوة، ومن ترسبات لعهود وهمية غير مترابطة، تفتقر في معظمها إلى الصلة بالواقع المأمول، وفق ما صدر من ضمير هذا الجيل في أحد المقاطع:" ليست فحسب مسئولية؛ كنت أحسها أمانة أن أنزّل الملف، بارتباك، بهشاشة، وبخشية أيضا؛ ليكون شهادة على ما نهبتْه من تاريخ رجال الشرف أنانيات الساسة وزحزحتْه حساباتهم إلى عراء النسيان. فها ذاكرتي، كما جيلي بأكمله تلطخها حماقاتهم المتعاقبة منذ خمسين عاما"[2]

وتستمر نظرة الاستياء من جيل ما بعد الاستقلال، والأجيال المتعاقبة، بالاحتفاظ بحق التساؤل عن حقيقة ما جرى؛ لأن الإجابات غير المقنعة بإعطاء صورة النموذج المثال لعظماء ثورة التحرير بدَّدتها "كولونيل الزبربر" في معظم سرد أحداثها الموثَّقة، وفي كثير من دلالاتها الضمنية، والتي أثّرت بدرجات متفاوتة في سمو نزاهة بعض المواقف، بغض النظر عن الفهم التأويلي الذي قلما يزودنا بالحقيقة الناجزة؛ لأن كل تأويل، أو اجتهاد، هو إعادة إنتاج معلومة بدلالات ضمنية متفاوتة بتفاوت المجتهدين، وفي غياب معطيات التوثيق النزيه، والمتوصل به إلى معرفة ما هو مجهول، تبتعد الحقيقة عن مسارها بالمصادرة على المطلوب إثباته، وهو ما جعل السائل من الجيل الجديد عن الحقيقة ــ دومًا ــ في دوامة الاستدلال

[1] كولونيل الزبربر، ص 93،92.

[2] كولونيل الزبربر، ص 18.

الدائري، الخاطئ، نتيجة بثِّ المعلومة المدَّعية بما ليس في ضمير صاحبها، ونشر الرواية التي تتسم بالمغالطة، والتضليل.

وإذا كانت "كولونيل الزبربر" تستبعد نزاهة النضال في حق كثير من المنضوين تحت لواء الثورة، فلأن فضاء الرؤية عندهم كان يشتغل على هامش الثورة؛ لمأربة لا لاقتناع، أو مواصلة النضال والدفاع عن الواجب قولاً وفعلاً، وفي هذه الحال فإن كثيرًا من المدّعين الذين يلعبون على صناعة المداراة كانوا يخوضون تجربة لا مكان لها داخل تجربة النضال إلا بالتلفظ والادعاء بالتظاهر، وهو ما شكل صورة "مأساة الذات" في الخيانة والنفاق من حيث هو موجود في النضال بلا مصداق، وهو ما عبر عنه جاك لاكان Jacques Lacan في قوله" تكمن مأساة الذات في اللفظ في كونه يمثل اختبارا لعدم وجودها" [1] ما يعني أن سرديات كولونيل الزبربر تشكل نقدا لمقولة الذات المتعاظمة، وإفشاء الانحراف الذي مارسته الذات الضالة في حق الثورة الوجيهة، ولا شك أن هذا التصنيف منح الرواية إجادة الوصف لنزاهة الحالة المكتسبة، قسرًا، والمخضبة بصبغة الزيف، من المحسوبين على الثورة. " وها كولونيل الزبربر: رتبته السابقة، وكنيته اللصيقة به شرفا، برغم حرارة مساء عيد هذا الخامس من جويلية الخمسين، يشعر برعشة غريبة تجتاح بدنه، حزنا متجددا من ذكرى حلَّت إلا لتراجعه بهمّ استوطن منه الروح ... ما آل إليه مجد حرب تحرير من التفريط المذنب، والنسيان القسري يعصر قلبي حسرة"[2]

لا شك في أن سردية كولونيل الزبربر تتيح للمتلقي التبصر في كثير من المواقف، وتبيُّنَ الصالح من الطالح من التحولات التي كانت تطرأ على الثورة، وتسهم في تدارك ما فات من الخطأ بالصواب، وما خفي من الباطل والبهتان. ولعل ممعنَ النظر في سرد أحداث، ودلالات، شخصية مولاي بوزقزة ما يعكس هذا التصور، بخاصة حين تخترق هذه الشخصية بوعيها ثقافة الاستئثار، ونبذ كل ما يعود على الذات في أنانيتها بالنفع، في مقابل السعي إلى التفكير في مصلحة الرؤيا الاستشرافية لتعزيز هوية المعالم المشرئبة للوطن، الغني برموزه، وفي صفاته الجوهرية الموعودة بنعمة الحياة، وسعة الحرية، وليس أدل على ذلك مما نجده في مرايا قلق مولاي بوزقزة، بوصفه أُسْوَةً رمزية ضاربة في قوة الضمير الجمعي للمناضل الوفي، وصادق العهد، وكأنه يؤدي وظيفته بالمعنى الأسمى للنضال المشترك بين المخلصين للثورة، وقد وفق الحبيب السائح في مساعي هذه الشخصية بشكل أكثر عمقا؛ للتعبير عن نفسية الثوار الملتزمين بتعبير ينسجم مع التطلع إلى المثال، والإخلاص للمبادئ، كما نجح في الجمع بين الذاكرة

---

[1] جاك لاكان،**Ecrits** ، نشر Seuil ، 1966، ص655. عن، يوري إيزنزويك: الفضاء المتخيَّل، ترجمة: عبد الرحيم حُزل، مجلة فكر ونقد، عدد 33، المغرب

[2] كولونيل الزبرب، ص 219.

والمخيلة بحسب هذه الصورة التي يبيِّن فيها مولاي بوزقزة في ليلة صقيعة، وهو يتفقد الحراسة، فتمثل له التاريخ بين الأغصان المخللة بنور القمر مخلوقا، كما جاء في قوله: "أريد وجهي الذي أضعته في هذه الأرض، أبغي لباسًا انبعث به على أبدان الرجال والنساء والأطفال المنتظرين، ثم راح يتوارى عنه في تلاش بطئ، فهتف من خلفه" سنزف لك هذه الأرض لتكون ذاكرتك"[1]

يُحمِّل الحبيب السائح عامل الذات في شخصية مولاي بوزقزة تجلّد الوعي بالمسئولية، والحرص على خلق معيار تجاوز محنة تغليب الأنانية من تجربة ذاكرة الثورة في بعض من نتائجها السلبية، والسعي إلى تمكين فاعلية الرغبة في ربط النضال بالنصر، أي ربط الذاكرة الجماعية بالغرض المستهدف الذي كرست له الثورة جهدها لتحقيق المصير المشترك، وهو مطلب يجعل الجيل الطالع يميل إلى الاعتقاد بمشاركته هذه المسئولية نتيجة استذكار مجده التليد، وهو ما توضحه المسارات السردية في حالاتها وتحولاتها الداعية إلى إمكانية فعل إنجاز وعدٍ قَامَ على استبدال فعل مرغوب فيه بفعل مرغوب عنه، وهو ما يطلق عليه في المصطلحات السردية بفعل " **التحريك**" الذي تسعى من خلاله الشخصية إلى التأثير في الضمير المستهدف بالحاجة إلى القيام بالوظيفة المتوقعة في حق المساعي النبيلة من الفرد في النضال، والإعمار، كما يبينه هذا التّبيان:

العامل "الذات"	العامل "الموضوع"	العامل "المرسل إليه"
مولاي بوزقزة	العمل على ترشيد ضمير الهوية	الأجيال الواعدة
الإحساس بالمسئولية	الرغبة في حق تقرير المصير	الالتزام بالواجب كبنية منفتحة على تعدد وجهات النظر
وعي ضمير بالنضال	النضال قولا وفعلا	توطين العلاقة بين الأنا والآخر
تداولية الذاكرة والاستذكار	تماثل التجربة النضالية	تجاوز الرؤية المركزية للأنا المتفردة
تملك ذاكرة الثورة في الأجيال المتعاقبة	تفعيل قصدية الذاكرة للحفاظ على أيقونة الثورة	الحاضر لا يكتمل إلا بتداعي الماضي، في صورة التلقي الأسمى

ولعل في هذا الجدول ما يوضح مسارات الرؤية السردية في حالاتها وتحولاتها بالدعوة إلى فعل إنجازي قائم على التحول من حالة اعتداء الآخر إلى حالة تقرير مصير الذات، ومن حالة النضال الوافي، والجيل الواعد. وقد نستشف ذلك من خلال الصورة الجامعة بين رمزية شخصية بوزقزة والعامل المرسل

[1] كولونيل الزبربر، ص 61.

إليه في شخصية المتلقي الأسمى، بدافع ربط الصلة بين قيمة النضال في ذاكرة الثورة، والرؤية التي تتحكم في التذكر بمساعيها المشرئبة إلى التشييد، غير أن ذلك لن يتحقق إلا بوجود تطابق بين حيازة الذاكرة، واكتسابها، بوصفها مرجعية الضمير، وبين توظيفها بطريقة فعالة من خلال استدعاء الغائب فيها، من دون استبعاد المغيّب قسرًا؛ لأن استبعاد التذكر من الخوض في تجربة الذاكرة يرسي التباين، ويُحكم الاختلاف، بين ما هو سابق وما هو لاحق. وعلى هذا التقاطع في التصور كانت شخصية بوزقزة تقاوم التأثير السلبي الذي حصل في الثورة، كما كانت تقاوم الاحتلال، في مقابل النضال في حق التأثير في الأجيال الواعدة من خلال إحالتها إلى بصمة الجينات الوراثية للثورة الجزائرية المشهود لها عالميا، " نحن نقاتل بشرف الرجال، العالم كله يستمع لأخبارنا، يقدر شجاعتنا. وهذه الأرض تنصت لمطالبنا: الحرية! أنتم لا تعتدون على أي قانون، نحن نحارب من أجل إزالة القوانين الظالمة في حقنا."[1]

إن ذاكرة ثورة التحرير المجروحة من قبل الذات، ليس يرجى برؤه، وأشد ضررًا، من جرحها من الآخر، بخاصة حين تكون الذاكرة "**مقاومة للنسيان**" بسوء استعمال التقدير من الذات المتمردة التي جعلت الهوية في محك مع معيار الاشتباه والالتباس؛ لأن كل مطلب للهوية الوطنية يفترض أن يكون بعيدا عن التلاعب بها، أو الانحراف عن مبادئها من أمثال" الخائن قنون"، أو على نحو ما سجله مولاي بوزقزة ذات مرة في خطاب رفعه إلى قائده:" ما يريد العدو تحقيقه هو إظهاره أن التعاون معه بلغ درجة الخيانة الجماعية والشاملة، ولا مفر إذا من الاستسلام"[2]

وسواء تعلق الأمر بمحاولة نسيان ذاكرة الثورة الجزائرية، أم التلاعب بهويتها الوطنية، فإن ذلك أظهر ضَعفا من هشاشة المقاومة لدى الوضيعين، ورسخ الاستسلام في وعي المَهينين، بفعل عامل الذات المتواطئة على ثورة التحرير، والقابلة للتبديل، وهي نفسها الذات التي تآمرت على خيانة الوطن من تركة هذا التواطؤ لحسابات ضيقة " لتكون شهادة على ما نهبتْه من تاريخ رجال الشرف أنانيات الساسة، وزحزحتْه حساباتهم إلى عراء النسيان. فها ذاكرتي ــ كما جيلي بأكمله ــ تلطخها حماقاتهم المتعاقبة" [3]. هذه الحسابات الضيقة كثيرا ما أعطت صفات التميز لمقاومتها المخضَّبة بالتخاذل من ذاكرتها، فيما تراه فاعلا بإرادتها، وأنانيتها المتلاعبة بالذاكرة الجمعية، وإسقاط فعل النضال لحسابها؛ من أجل أن تبقى العينَ

[1] كولونيل الزبربر، ص 62.

[2] المصدر نفسه، ص 100، 102

[3] المصدر نفسه، ص18.

الرائية، والشاهدة على مرجعيتها عبر توالي الأزمان، وهو ما شكل صعوبة، تباعا، في كتابة تاريخ "الجزائر الحديثة" بتقدير الحاضر للماضي بشكل نزيه، من دون موارية أو رياء، كما عبر عن ذلك كولونيل الزبربر في ذكرى الخامس جويلية، وهو يعاود لنفسه جهرا بمرارة مسحوق العرعار في حلقه: "حرب تحرير، بقسوتها وفظاعتها، وآلامها، وثمنها، لا يكتب تاريخها جبناء... ها هو نصف قرن يمر على أول نوفمبر ولا شيء كُتِب"[1]، فما كان مكنَ تواطؤ على الثورة بالفتك المرسخ في حينها، أصبح بعد الاستقلال تسيبا، بإهمال الضوابط، والتقاعس في التسيير الذي أفضى إلى فقدان التوازن في كل شيء؛ بفعل إرث الاختلال المؤسس من بعض المعاندين والمعارضين من القيادات المحسوبة على ثورة التحرير، والتي لم تكن تمت بصلة إلى الثورة إلا من باب المصالح النفعية، بخاصة فيما قبيل الاستقلال، حيث امتهان صناعة تصفيات بعض القيادات النزيهة بالتهم المدبرة، بوصفها ضربًا من ضروب الخيانة للثورة في نظرهم، وهي سمة تميز كل الثورات العريقة التي تلد خصوما ألداء، وتتوارث عنفا مؤسَّسا، كما جاء في تعبير بول ريكور: "هناك أمر واقع وهو عدم وجود مجموعة تاريخية لم تولد من علاقة يمكن تسميتها أصلية بالحرب. إن ما نحتفل به كإحداث مؤسسة هو عبارة عن أعمال عنيفة اكتسبت شرعيتها بعد وقوعها عن طريق دولة قانون وحق، هي ذاتها عابرة مؤقتة، وتأتي هذه الشرعية في الحالات القصوى بسبب أقدمية هذه الأعمال العنيفة، بل وحتى بسبب تقادمها. الأحداث تعني للبعض المجد، في حين أنها تعني للبعض الآخر المذلة. الاحتفال من جهة تقابله الكراهية من الجهة الأخرى. وهكذا تُخزَّن في أرشيف الذاكرة الجماعية جروح حقيقية ورمزية"[2]

الإمكان المُجهَض/ عَرَاءُ الرؤية

سوف نحاول في هذا العنصر ان نبتعد ما أمكن عن المرجعية المشتتة في تمثلات الثورة، حين مارست بعض العقليات نزعة "التفريد" بالتسلط المجحف، والعسف الجائر، في مقابل تمثلات تصور الإمكان الملائم لخطاب الجيل الواعد، ضمن صيغ هوية إملاءات مبادئ الثورة التي خططت لتتابع مسعى البناء، وتداول المسئوليات، والتعاقب عليها، وإقامة الصلة بين السلطة والمجتمع وفق قوانين المؤسسات التي ترعى مشاريع النهضة؛ الأمر الذي من شأنه أن يحقق دور الممارسة الاجتماعية في البناء.

---

[1] المصدر نفسه، ص 57.

[2] بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2009، ص 138.

وإذا كانت" كولونيل الزبربر" تطرح الكثير من التداخلات التي تقاطعت مع مسيرة تاريخ الجزائر الحديثة، منذ 1954، فلأن ذلك مرهون في نظر الحبيب السائح بالأزمات المتعاقبة عبر توالي الأزمنة، من دون إيجاد حلول مناسبة لها، إلا فيما أملته الحلول الشبحية التي كان يستأثر بها الاختلاف الوراثي الذي ورَّث بدوره الاختلاف في الإنجاز المرجأ. وليس من قبيل الغلو والتجاوز إذا قلنا إن فكرة " **الاختلاف المرجأ**" ــ لدى البعض من ساسة الجزائر ــ سادت الوعي النضالي قبل أن يتوصل لها الفكر الفلسفي، من حيث كونهما يقوضان الفكرة من صلاحية التحديد، ويصبح الاختلاف المفضي إلى الإرجاء غير قابل للقبض على تصوراته، أو عصي التحديد. وفي ضوء مشاريع بناء الجزائر الحديثة ــ وفق هذا المنظورــ يغدو تنفيذها، وإنجازاتها ــ في معظمها ــ منحرفة عن الفضاء المرسوم لها، وملتوية على إنفاذ العهد، وموارية في حق مصداقية الواجب، وذلك بعد أن وضعت المسئوليةُ " **مرجعيةَ الثورة**" علامة أيقونية مُعينة للتسيير، وعضدا قويًا للإرضاء، والإقناع. وقد توازى ذلك مع وفرة المرافعات الشعاراتية التي كانت تضمن وقاية التمويه، وهو النهج عَيْنه الذي اتبعته سياسة دهاليز التواري والاختباء وراءَ داءٍ، مستغلي مرجعية الثورة ــ في جانبها السلبي ــ وبما جرته من تبعات تعارضات ذوي البلاء الذين أساءوا للثورة، "على درجة إيلامها وشقاوتها كما قرأ كولونيل الزبربر وسمع ودوَّن.. بهذه اللحظات إلى درجة القنوط ... بهذا الإحساس بأن الحياة ما تزال مستمرة بعنفوانها لا تتوقف لها حركة ... إذ هي بقدر ما تثْلمها الأحزان، تسخو على المظلومين بفرح آت دائما، حتى وإن تأجل: الفرح !.. ذاك ما رآه بعين الطفل الذي كانَه فهدهده خلال التهلل الأعظم. عاشه، تنفَّسه ، قبل خمسين عاما. الآن يشغله، هو كولونيل الزبربر، فيمَ كان مولاي بوزقزة يفكر، ومن كان يتذكر أكثر".[1]

وتتضمن كولونيل الزبربر في دلالاتها جملة من الوظائف التي تصور مجموعة من الثنائيات المتقابلة، لعل أهمها ثنائية التواصل والرغبة، بوصفهما محورين أساسين تدور حولهما ثنائيات البرنامج السردي في هذه الخطاطة الواصفة لبنية العوامل القائمة جزئيا أو كليا في كولونيل الزبربر:

[1] المصدر نفسه، ص 59،60.

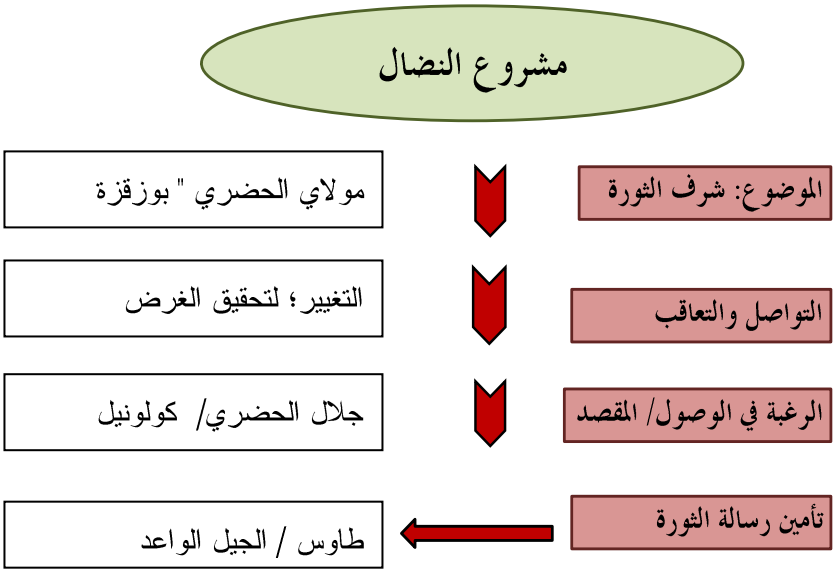

فإذا كانت بؤرة السرد تُعنى بشخصية مولاي الحضري "بوزقزة" التي يعمها الحُبور، نتيجة قيامها بالواجب الوطني الذي استدعاه للماشركة في ثورة التحرير، فقد كان ذلك بدافع تحقيق رغبة الانتصار، وتقرير المصير الذي من شأنه أن يضمن استقلال البلد، والمحافظة على هويته المتميزة، والسعي إلى تحقيق طموحات الأجيال المتعاقبة، ومناهضة كل معيق يحول دون تحقيق ذلك، وبالمقابل إذا كانت الرغبة، والمعيق، من أساسيات النموذج العاملي للرؤية السردية، بوصفهما يتبادلان الموقع في المقاطع السردية، فإن شخصية بوزقزة في مساعيها النضالية تقابلها شخصية الخائن قنون، وشخصيات أخرى قال في حقهم بوزقزة إلى رفاق الدرب ذات مرة: " من واجبي أن أخبركم أني اكتشفت مؤامرة واسعة في ولايتنا، حاكتها منذ شهور طويلة المصالح الفرنسية المضادة للثورة الجزائرية. الآن وبفضل الله استطعنا أن نبعد كل خطر؛ لأننا تدخلنا بشرعية وبقوة"[1]، وفي هذا ما يشير إلى أن مساندة الفاعل " بوزقزة" من الرفاق، هو السعي إلى تحقيق الهدف، في حين كان الآخر، العميل، يعمل على إعاقة هذا الهدف، أو بمعنى آخر إذا كان **التأهيل في الإنجاز** من بوزقزة يستوجب ضمان الحالة التعاقدية مع الواجب، وفق مجريات السرد في دائرة تصوره العام، وإذا كان الإسهام في تحقيق هذه التواصل المبني على الرغبة في الانتصار، بدافع التحفيز بالفوز بالشهادة من كافة المناضلين والثوار في أيقونة بوزقزة. إذا كان الأمر كذلك، فإن **المعيق** كان دومًا يسعى إلى قطع دابر البنية العاملية لهذا الإنجاز، وعدم تحقيق رغبة الفاعل، وهو ما يطلق عليه

[1] المصدر نفسه، ص 95.

في الدراسات السيميائية بتثبيط فعل الفعل، بغرض تنمية بناء أحداث المقاطع السردية الصغرى المنجزة من قبل الذات الفاعلة، وتوضيحها أكثر. وقد تمثل هذا المعيق opposant في سرديات كولونيل الزبربر في مجموعة من الشخصيات منها المعتدي الأول الماثل في المستعمر، ثم الموالين له فيما بعد الاستقلال من العملاء، والخونة، على حد ما عبر عنه كولونيل الزبربر وهو يشعر بمرارة على "ما آل إليه مجد حرب تحرير من التفريط المذنب والنسيان القسري يعصر قلبه حسرة... من أين خرج رهط هؤلاء الساسة الوصوليين ... مع المهرولين بقميص الدين، بأي جبروت يتحالفون على قهر شعب ليعيش غريبا، هنا، في وطنه، على أرض أجداده، بين الصحراء وبين الماء تائِهَ الوجدان، ممنوعا من بناء دولته كما تصورها خلال تضحياته من أجل استقلاله"[1]

توضح أحداث المقاطع السردية المتواليةُ الغايةَ من الرغبة في معرفة الحقيقة بين العودة إلى الماضي، ومواجهة محنة العشرية السوداء، والبلاء الذي مرت به الجزائر في التسعينيات من نهاية القرن العشرين. ولعل تباين الأحداث بين الذاكرة المعطوبة لثورة التحرير، بما دبَّ فيها من ضرَّاء، وبين تعطيل مسيرة بناء الوطن، كان مصدره **المعيق** الذي أجهض المبتغى، وأخَّر تحقيق رغبة كولونيل الزبربر في شخص جلال الحضري، رمز التشييد والتعمير" وبما أنّ ذاكرة الإنسان هي هويته، عاش جلال الحضري الكولونيل بهذا الألم بذاكرتين ، ذاكرة والده "المهاجي" الملقب بمولاي بو زقزة الذي سلّمه كراسة فيها شهادته عن حرب التحرير ، بما فيها من انتصارات وانقسامات وخيانة . وذاكرته التي سجلها بدوره في كراسته عن الحرب العبثية التي اجتاحت الجزائر في تسعينات القرن الماضي ، ذلك الجنون والجرح الذي لم يندمل بعد"[2]

[1] المصدر نفسه، ص 219.

[2] ابتسام القشورى: كولونيل الزبربر العودة إلي الماضي الرحيل إلي المستقبل، ملحق أخبار الأدب، الرابط، www.dar.akhbarelyom.com

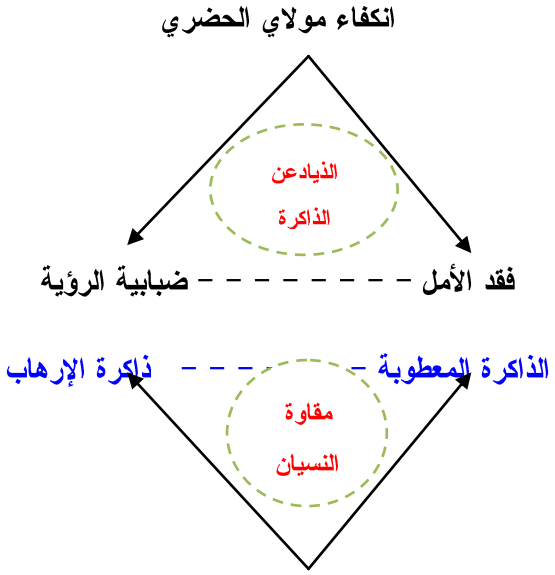

اجتراء جلال الحضري (مقاومة للنسيان)

ولعل في هذه الرسمة ما يوضح تحولات وظائف الشخصيات التي مكَّنت بناء الرؤية السردية من تعميق تنامي الأحداث، وتقاسم الأدوار، وفق النسق الدلالي للوحدات السردية الصغرى، بوصفها وحدات متماسكةً، تحكمها البنية العاملية لخطاب السرد، حسب تصور غريماس Greimas، التي تقوم على أساس " من ست خانات موزعة على ثلاثة أزواج، وكل زوج محدد من خلال محور دلالي يحدد طبيعة العلاقة الرابطة بين حدي كل زوج، ويحدد في الآن نفسه طبيعة العلاقة الرابطة بين الأزواج الثلاثة. ويعطي غريماص لنموذجه التمثيل التالي: "[1]

[1] سعيد بنكراد، مدخل إلى السميائية السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1994، ص 47

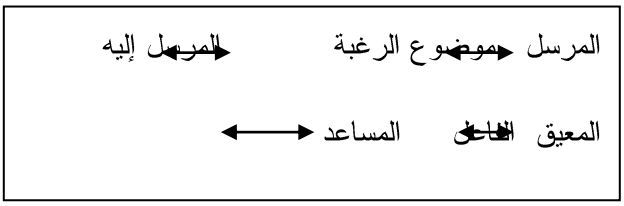

ويمكن الإفادة من هذا التقسيم لتوضيح تطابق الأدوار بين مولاي الحضري وجلال الحضري من حيث السياق الدلالي في هذه الإبانة:

العامل المرسل الأول: وهو الذي تتجه إليه رغبة الذات /البطل بالقيام بمهمة الثورة/ النضال) (في رمز مولاي الحضري)

العامل الموضوع الأول: هو فقد الأمل وضبابية الرؤية بالنسبة إلى العامل المرسل (مولاي الحضري)

وظيفة العامل الأول : انكفاء مولاي الحضري على نفسه بمغادرة جيش التحرير بعد الاستقلال، نتيجة أخطاء ألحقت بالثورة أضرارًا جسيمة.

العامل المرسل الثاني: في شخص جلال الحضري (الوريث) في علاقة امتلاك وانتماء إلى وظيفة العامل المرسل الأول.

العامل الوضوع الثاني: تفحص الذاكرة المعطوبة واقترانها بذاكرة الإرهاب.

وظيفة العامل الثاني: وهي هنا أداة تكشف الذاكرة التي حاول أن يخفيها النسيان.

العامل المساعد : وهو إرث نضال الموضوع الأول (المذكرات) الذي يؤازر الذات / المرسل الثاني في مهمتها.

العامل الذات: وهو بطل القصة، يسعى إلى الحصول على مقصوده، وهو هنا مولاي الحضري: بوصفه رمزا للأمانة، وتعزيزا للهوية، يقابله جيل ما بعد الاستقلال في شخص "كولونيل الزبربر في علاقة تآزر، وتعاضد.

العامل المُجهض: وهو كل من يمنع الذات/ البطل (العامل المرسل الأول، والعامل المرسل الثاني) من الوصول إلى المطلوب، والحصول على المرغوب، أو يحاول أن يعوق الإنجاز ويحوله إلى إخْلاف . ففي حين كانت الذات العامل المرسل البطل المحوري في الظاهر، فإن ذات العوامل المعارضة تشتغل بدورها في الظاهر لتحقيق منالها، حتى لو اقتضى الأمر قسرا لعرقة العامل الفاعل من الوصول إلى مراده، وليس بالضرورة أن يكون العامل المجهض إنسانا، فقد يكون شيئا، كما قد يكون قيمة معنوية سائدة، من حيث إن

العامل المعارض يمثل تلك الذات التي تحاول جاهدة عرقلة العامل الفاعل في حصوله على موضوع الرغبة.[1]

وبهذا التوصيف في حمولته الدلالية المستخلصة من المقاطع السردية، نستطيع أن نصل إلى نتيجة مفادها، أن سيرورة أحداث "كولونيل الزبربر" كانت مبنية على ثلاثة محاور أساسية، وهي:

- **المآل** فيما آل إليه الوضع إبان الثورة وبعدها.
- **طَوْقُ الإنجاز** فيما حاول أن يقوم به العامل المرسل الأول والثاني.
- **الإمكان** في الرغبة للوصول إلى الغاية، وهي هنا التعمير والبناء.

وإذا حصرنا ما نسب إلى العامل المرسل الرئيس (بوزقزة) وجدناه يُبطل مزاعم " **ذاكرة التفريد**" حين كانت تدَّعي زعمها للنضال الوفي في مقابل التناسي القسري للذاكرة الجمعية. ففي حين بدت الذاكرة الأولى وكأنها مصدر الثورة وسبب الانتصار، بدت الذاكرة الثانية، من المدعين، وكأنها مصدر البلاء، وسبب تأخر المسار النضالي، غير أن العامل المساعد الماثل في مذكرات بوزقزة تروي غير ذلك، بعد أن كشفت ما في التاريخ من زيف طال الذاكرة الجمعية، وكأننا بهذه الذاكرة المدعية ــ بما ليس فيها ــ تضع مرجعية ثورة التحرير في ميزان القسمة الضيزى، وهو ما أضعف الجسر الرابط بين الماضي والحاضر، أو بين الذاكرة والوعي، وخلق بترًا وتشويها بين ثقافة الأجيال المتعاقبة.

وإذا كان العامل المرسل الأول(بوزقزة) كشف انحلال الثورة المضادة، فإن العامل المرسل الثاني(جلال الحضري) منح لنفسه صفة الرابط بين الذاكرة المروية والذاكرة المعاشة في أزماتها الحديثة؛ ما يعني أن خطاب كولونيل الزبربر يشكل تبايانا في الجمع بين المتعارضات في صورة أزمة تاريخ الجزائر الحديثة، من خلال استدعاء الذاكرة المنسية التي مرت على الكثير من التجارب المؤلمة. وفي ضوء ذلك نعتقد أن جلال الحضري استطاع أن يربط حبل تواصل وعي الجيل الجديد بالتراكم المخفي من ذاكرة النسيان، الناتج من هول ما سجلته مذكرات مولاي الحضري(بوزقزة)، بوصفه الضمير الجمعي لذاكرة الثورة.

أضف إلى ذلك، أن نتائج قلب العلاقات والأدوار بين الشخصيات الفاعلة مثل (بوزقزة، وجلال الحضري، وطاوس) هو ما يمثل النموذج التكويني للبنية السردية التي تسير نحو محور الرغبة في تأكيد

[1] ينظر، سليم بركان: "النسق الإديولوجي وبنية الخطاب الروائي" دراسة سوسيو بنائية لرواية (ذاكرة الجسد) للروائية أحلام مستغانمي .بحث لنيل الماجستير ص: 92

فعل إنجاز المشروع المرجو، وفي مواجهة محور الصراع المعيق للبرنامج السردي في دلالاته المتوقع حدوثها من تعمير وتشييد. وانطلاقا من هذا التصور يأتي دور العامل المرسل الثاني(جلال الحضري) بمثابة الوسيط بين زمن الحاضر /الماضي(في مرويات بوزقزة)، وزمن الحاضر/ المستقبل(في المرتقب من طاوس) الوريث الشرعي للحلم الواهي المتوارث.

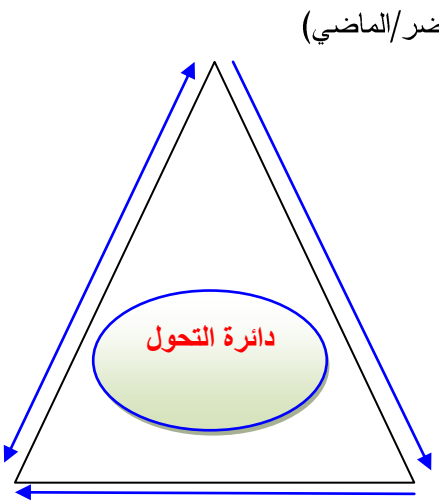

الإرث المتارجح / الإمكان المرجوح

تُجمع الدراسات الفكرية على أن الحياة الاجتماعية قائمة على فلسفة التجريب، وأن تجربة التذكر مصدر أساس لواعية كل المجتمعات، وعلى هذا الأساس أصبح من الطبيعي أن ينصب اهتمام المفكرين والفلاسفة على "الذاكرة الواعية"؛ أي على التذكير. وأن تتذكر ــ هذه المجتمعات ــ يعني أن تمتلك تجربة واعية[1]، تؤثر في الأجيال المتعاقبة بشتى الطرق، وفق سنن الكون، وبما تستوجبه وحدتا السبب والمسبب باستدعاء الذاكرة، وبما يقتضيه بعث الشعور بالانتماء في داخلنا، مقابل ما يمكن أن يسببه النسيان، وهجر الذاكرة لفعل التاريخ.

ولا شك في أن صورة الارتباط بالمجد التليد، تجعل المرء يستدعي إغراءات سبل التطلع إلى الحنين بما يتضمنه من ملكية متوارثة، كما في ملكية ثورة تحرير الجزائر التي أرَّخت لهويتنا النضالية في

[1] ينظر، ميري ورنوك: الذاكرة في الفلسفة والأدب، ص 30

هَبَّتها الشعبية، وانتفاضتها العارمة، واقتفت أثرها الحركات التحررية في العالم، وانتهجت سبيلها في النضال، بوصفها رمزًا للبسالة والتضحية؛ الأمر الذي يتطلب أن تَستجلب منها الأجيال الواعدة ما يفيد مستقبلها، نظير التأثير الموجب من تجارب زاخرة، مرت بها ذاكرتنا النضالية.

وقد يرتبط هذا التصور مع دلالة الذاكرة في تمكين الانتماء وترسيخه في الأجيال، وطبعه في أذهانهم بما تمليه الهوية الثقافية الوطنية، والرؤية المنتجة لتعزيز هذه الهوية. وفي اعتقادنا أن ذلك مرتبط بالبعد الدلالي للعلاقة الجدلية بين الإنسان وماضيه، سواء عبْر الرؤية الفاعلة للمسيرة النضالية التي من شأنها أن تُوجِد دعائم الاستقرار، والأمن بشتى أنواعه، أو عبر تفاعل الإنسان مع ماضيه الموثوق، والجدير بالتقدير؛ ليجعل من التاريخ صفة لذاكرة تتبع موصوفها الجمعي في كل مساعيه، بخاصة إذا كان المطلوبُ من الأجيال استدعاءَ ما في مخزون الذاكرة من إيجابيات عند الضرورة، وإذا كان الأمر كذلك في المنظور المفترض، أو المسلم به ــ إيمانا وإخلاصا ــ فإن كولونيل الزبربر تحكي سردًا منافيًا للمطلوب، استوجبته تجارب غاوية بمصادرة الذاكرة على المطلوبِ وَجَاهَته، واستملاك الحقيقة، والاستيلاء عليها، وهذا ما جعل الذاكرة في نظر الجيل الواعد أنها مقسمة قسمين، قسم مؤرخ لها شعارياتا ، أفرزه الأمر الواقع إعلاميا وحزبيا، وقسم آخر هو في طي النسيان، إلا مِنْ أولئك الذين بداخلهم الغيرة على معرفة الحقيقة. أو بصورة أخرى أن ذاكرة ثورة التحرير كما رسمتها كولونيل الزبربر تمر برؤيتين متباينيتن، الرؤية الأولى حاضرة في ارتباطها بالماضي وفق إملاءات، تستحضر تمثلات منسوبة قسرًا، من دون تقاسمها مع الآخر المغيب عُنوةً، في حين كانت الرؤية الثانية منتزَعةً من منابعها، بعد أن بدأت تنجلي عن بعض المذكرات المنتشرة في تضاعيف وسائل الإعلام المختلفة.

والحال هذه، أن ذاكرة ثورة التحرير في نظر كولونيل الزبربر ــ في بعض المواقف ــ ابتلاها التَّلْيين، وألَمَّ بها الضَّيْر، واعتراها الوَهَن، وأن تلاشي أحلامها بدأ يضمحل بعد تفشي الابتئاس، حين كان الاعتقاد في شعار من "الشعب وإلى الشعب" تَوْقَ ما يحقق الإنجاز المأمول، حينها لم نجن سوى ثمار الخيبة، وأسباب السأم، والتبرم، والضجر، واليأس، بخاصة بعد العشرية السوداء، في توازٍ حاد مع الصراعات العقيمة التي جرَّت البلد إلى تطاحنٍ شرسٍ على المقامِ، وهو ما لم يعتقد أن يصدقه الجيل الجديد ــ بعد هذه الحقبة ــ من تركة أصبح يراها بعين الذاكرة، وبوعي عقل واقع الحال، بصورة مشوبة بخلط المفاهيم؛ الأمر الذي عقَّد من سبل الاقتناع بما يجري فعلا لهذا الوطن الذي ضحى بالنفس والنفيس، على نحو ما عبرت عنه طاوس ــ رمز المستقبل ــ حين كانت تناجي نفسها متأملة ما جرى في قولها:" ها أنا أستمع لنفسي تنْدب لي، بطعم المرارة في ريقي، أني لم أقرأ عن تلك الأحداث في مقرر دراسي خلال مساري كله، ولا كنت شاهدت صورًا منها، أو طالعت عنها في وسيلة إعلامية رسمية، إلا هذا

التخمين، وذاك من متورط فيها، أو هذا الريبورتاج وذاك من قناة بث متحيزة: أن يوجه أسلحتهم إلى صدور بعضهم بعضًا في صبح الاستقلال من كانوا بالأمس جنبا إلى جنب يقاتلون عدوًا مشتركا" [1]. إن توجيه السلاح من صورته الحقيقة مع أوج الثورة إلى صورته المجازية، قابل للقياس بما يجري في واقع الحال بالنسبة إلى الرهانات السياسية التي ترسخت في السنوات التسعين من القرن الماضي، تحديا، مما يعني أن هناك ارتباطا تاريخيا بين سياسة الماضي وسياسة الحاضر، بفعل كينونة التفريد التي حفَرت في الذاكرة ملامح الخلافات المزمنة، تسبب فيها أُناس لا يمثلون ــ في معظمهم ــ الجزائر في شيء.

ومن هنا جاءت الذاكرة في كولونيل الزبربر رهينة بالعقول المأفونة ــ بخاصة منها ــ المحسوبة على الثورة، ما يعني أن الصورة المتأملة كانت رهْنَ مَن وُضعت في ضمائرهم الأمانة فخانوها؛ لأن ما حدث إبان ثورة التحرير من خيانات هو عينه ما يحدث في كثير من المواقف لدى بعض المسئولين المنكفئة ضمائرهم ــ على الاختلاس قبل الارتحال دون عودة ــ بع الخروج عن الجادَّة، والانحراف عن الصواب.

وبما أن ذاكرة ثورة التحرير مرجعية تاريخية أسهم في تأسيسها ــ في الغالب الأعم ــ الماضي المشترك، فإن نتائجها مرهونة بالإفادة منها، سلبا أو إيجابا، في مواجهة المصير، ومن هنا يكون من واجب الفعل المنجز من الشخصيات الاعتبارية التنازل عن بعض الخصوصيات ذات الطابع النفعي للحفاظ على تماسك الأداء المشترك، وكلما ابتعد الفاعل المعارض عن الوفاء للمصلحة العامة، كان سببا في تغليب المنفعة الذاتية على المنفعة الجماعية، وكلما زاد التباين زاد معه الابتعاد عن الهدف المشترك، وهو ما تشير إليه الدلائل السردية في مواقف عديدة من كولونيل الزبربر التي نلمس فيها من "الإمكان المُجهض" ما جعله يتسبب في عراء الرؤية لحساب المنفعة الذاتية، وفرض الجزاء على من ينقض الولاء، كما يشهد على ذلك النص المتعلق بمعلم من أهالي مدرسة" لزانديجان" الابتدائية حين ألقى سؤاله على تلاميذه في قسم السنة السادسة:" لو كنت تملك طاقية الاختفاء ما تفعل؟ فأجاب تلميذ ... سأذهب لأحضر السلاح، وأخوض معركة ضد كل الفرنسيين، أهدم كل شيء.." [2]، وهو المآل نفسه الذي واجهه الطالب الجامعي عاشور حين أجاب قائده:" حضرة القائد اخترت أن أحصل على شهادة وطن، كان يمكن لي أن أحصل على غيرها من جامعة تركتها بإرادتي، " [3] أمام هذه الصورة التي اقشعرت منها أبدان القائد من

---

[1] الحبيب السائح: كولونيل الزبربر، ص 171

[2] كولونيل الزبربر، 160

[3] نفسه، ص 86

عجب، وذهول، ما سمع من طالب مثله يغادر الجامعة طوعا، ويرفع السلاح من أجل تحرير بلده[1]، وهو المصير نفسه الذي حمله الكثير من طلبة الجامعات الذين التحقوا بالثورة إخلاصا لمسئولية الواجب الوطني في أثناء ثورة التحرير، وإبصار ما ينتظرهم من التزام، وتعهد، لبناء الوطن بعد الاستقلال. ولكن هيهات أن "**يجري الماء إلا في مجاريه**" بعد حضور الذات المعارضة المحورية في الرؤية السردية التي تقف في وجه كل فائدةُ مقصودة لصالح المنفعة العامة؛ لتضع العقبات والحواجز من أجل تحقيق سلطتها الذاتية؛ لغرض الرغبة في الاستئثار بالسيادة والعظمة، وهو ما عبرت عنه هذه الصورة المؤلمة:" في نهاية هذا العام الخامس 1959، كان سجل، إذ أبلغه المحافظ السياسي مآل الطلبة الخمسة، تعذيبهم إلى حدِّ إقرارهم بما لم يكونوا أبدا فعلوه، أو فكروا فيه، طلبا لاستراحتهم بموت يخفف عنهم ما لم يكن جسد أو روح يتحمله، عمل غير إنساني يمس بمصداقية أخلاق الثورة، ويوهن الصفوف، ويفتُّ في المعنويات... يا لهذه الحرب القاسية!." [2] على الرغم من أن مبادئ ثورة التحرير هي ما حفز طلبة الجامعات، وحثهم على الإضراب والالتحاق بصفوف الثورة، وعلى الرغم من أن التحاق الطلبة يعد عضدًا قويًا، وثقة مشفوعة بإيمانهم القطعي بأن الحرية تؤخذ ولا تعطى ، على الرغم من ذلك فإن للعامل المعارض دوره السلبي، في تحقيق الرغبة، الذي حول موضوع الالتحاق الطوعي ــ بوصفه طاقة فكرية وعملية ــ من حال التَّوْق إلى المشاركة في أداء الواجب الوطني إلى حال الخيانة، بمجر أن أخال على قائد ما الاشتباه في أمر مظنون، أو ادعاء موهوم، أو ذنب ميسور، وكأن العامل المعارض هنا جاء في وجه العامل الفاعل بدافع السعي إلى الحيلولة دون ظهوره في الواجهة السياسية، أو بين هذا الطالب المتعلم، وبين ما يصبو إليه القائد (العامل المعارض) الذي يجني المنافع في مقابل الجزاء، أو العقوبة، لكل من أشهر النَّكث، أو أجهر عدم الطاعة للقائد.

وليس بالضرورة أن يكون العامل المعارض، إنسانا له مصلحة ما، فقد يكون متصوَّرًا له وجود حسي، أو قد يكون له قيمة معنوية سائدة، وهو بذلك "يشكل صورة أكثر تعقيدا، فهو يعين في الآن نفسه ما يسمى حاليا بالذات المضادة ويعين المساعدالسلبي، أنه نفي بسيط لجزء من أهلية الذات المتجلية من خلال تجسدها في ممثل أخر غير الذات" [3]، وفي كل هذا، وذاك، يكون العامل المعارض معيقًا عن الإنجاز، ومثبِّطا للعامل الفاعل، على نحو ما نجده مع شخصية طاوس التي كانت تجهل ما جرى في ذاكرة ثورة

---

[1] ينظر، المصدر نفسه، ص 88

[2] كولونيل الزبربر، ص 89.

[3] ينظر، سعيد بنكراد: السيميائيات السردية،الفصل الثالث: التنظيم السطحي، موقع http://www.saidbengrad.net/ عن Henault (Anne) Narratoligie, sémiotique générale II ed P.U.F paris 1983 p : 59

التحرير من وقائع حقيقة، ورؤية حاسمة في تحديد المعالم التاريخية التي تمثل مراحل تحول الذاكرة في منجزاتها بالمصداق، والشاهد على صحتها، وعدالتها، ووفائها، ولكن سطوة التاريخ ونفوذه من المنتفعين قسرًا تحرم الوعي الجمعي من المطالب المتوخاة، فكما حرم الطلبة في ثورة التحرير من إثبات الوجود، والقيام بالواجب، حرمت طاوس، رمز الجيل الواعد بطلب العلم من المعلومة الثقافية من خلال جهلها بما حدث، فهل كانت سياسة تجهيل طاوس مقصودة، أو كان يكتنفها اللامبالاة، أو أحاقت المنظومة التربوية بها التنكير، ومع اتساع حجم التجاهل كانت طاوس تبلع طعم المرارة تحسرًا، وحزنًا، حين قالت:" إني لم أقرأ عن تلك الأحداث في مقرر دراسي، خلال مساري كله"[1]، والصورة في دلالاتها تتجاوز عدم الاطلاع إلى الإقصاء نفسه الذي مورس على طلبة ثورة التحرير، بشكل مختلف. لقد كان العامل المعارض هو ما أجبر طاوس على أن تكون في حيرة من عدم تمكنها من نسيجها الثقافي في المدرسة، بوصفها الحاضنة التي يتم عن طريقها تعاطي المعرفة بمختلف العلوم، والحال أن طاوس وجدت نفسها تعكس صورة الإغفال، والإهمال، ومحاولة إلغاء شخصيتها من الذاكرة، وجعلها غفلا من تاريخها، وأسيرة التناقضات السياسية المستشرية.

ولكن، هل الفاعل المعارض بالأمس هو نفسه الفاعل المعارض اليوم بقناع مختلف؟ وهل ما كان يوظفه من إعاقة يعيد إنتاجه اليوم بشكل مضمر؟ وهل الصورة تأخذ طابع الإرث النسقي المؤَسس الذي اكتسب مقوماته من ذاكرة المرجعية المتسلطة؟

وإذا كان أي خطاب يُعد نظامًا من الانجلاء، والوضوح في الرؤيا السردية، فإن خطاب طاوس يعكس خطاب الطلبة الذين غادروا المدارس والجامعات من أجل الالتحاق بالثورة، ولم ينالوا القدر الكافي من الرعاية، وهو ما يظهر التمايز بين العامل المرسل(الفاعل المنتج) والعامل المعارض، بوصفهما متضادين نتج منهما اختلاف في الأداء والوظيفة، فما كان في الذاكرة خيانة مستباحة بواعز، الاغتياب، أو الدسائس، قد أصبح مع طاوس يمارس في شكل التناسي، والتعامي عن الحقيقة من حيث لا يسمح لها بأن تظهر، أو يؤمر باستخدامها في المضرب المراد، وإذا كانت الخيانة ضربًا من ضروب الخدعة، والغِلُّ، والمداهنة، فإن النزاهة، والإخلاص، والتفاني من ذلك براء، فما كان من وظيفة العامل المرسل إنتاجًا مضافًا للنضال يقابله من وظيفة العامل المجهض شناءة، وضغينة، وعداوة، وقس على ذلك من مترادفات لُجَّةِ المَكْرَهَةِ التي تراوحت بين غريم ذاكرة الأمس، ومناوئ نضج الوعي النضالي اليوم، وفي كلتا الحالين، هما معًا، يعكسان صورة الإكراه، والتضييق، والقسر، والقهر في حق ثورة الأمس ووطن اليوم،

[1] كولونيل الزبربر، ص 171.

" كما ان ّهذا التراوح بين الذاكرتين أي التراوح بين الماضي البعيد، والماضي القريب، والحاضر المتعلق بتعليقات "طاوس" وموقفها كجيل جديد عندما اكتشفت حقائق لم تسمع بها من قبل، أخرج الرواية من ملل السرد الخطي.... في مقابل ذلك يصور لنا الحبيب السايح وبعيدا عن التمجيد المبالغ فيه لصناع ثورة حرب التحرير الشجاعة، والبطولة، وحب الوطن، وكذلك الخيانة والانقسامات والإعدامات غير المبررة، والمؤامرات، والكثير من الملفات التي كانت من الصعب أن تفتح بُعيد الاستقلال..... بهذا الاشتغال علي الذاكرة، يعود الحبيب السايح الي التاريخ، يحاوره، يرفضه، ويعيد صياغته، ويسعي الي إضاءة الحاضر مستبشرا بالمستقبل، ففي الرواية نظرة تفاؤلية تجعل من الجزائر تستفيد دائما من جراحها[1]

هكذا هي الصوة السردية في كولونيل الزبربر، كما تبدو في نظر المتلقي، حيث الذاكرة لها وجدانها الملجَّم، والمخيلة المشرئبة لها حائلها المعيق، وما بينهما يقبع الظَّفر في مكانه، وتنزوي المبادرات في التيه، وتتوارى المقاومة عن إنفاذ العهد، ويتعطل الإنجاز عن المتوقع حدوثه. وفي كلتا الحالين كان الحرمان مستأثرا بالتسلط من العامل المعاكس بعدم الوصول إلى المطلوب، ولكنه بالمقابل ليس بمقدوره تقويض الحلم بوعيه الخالص الصوري الذي ينتمي إلى ماهية الهوية، وقد تتضح معالم هذه الدلالة المزدوجة في هذه الوحدة الصغرى من المقطع السردي:" لما كان كولونيل الزبربر حدَّث باية، أيضا، قبل ثمانية أعوام في ليلة "أول نوفمبر" عما عاناه جنود جيش التحرير، كان تصور لوالده بوزقزة، كما يقول، حرمانات (عديدة).... حالٌ أشبه بهذه التي يحياها اليوم رجال الجيش والأمن في هذه المواجهة مع الشر!.. حرمانٌ ولكن إلا من هذا الحلم الذي لا يقهر في النفس بأن تكون سيدة مصيرها. هذا ما يعتقد أنه ورثه أصلا من والده.[2]

وعلى الرغم من أن الحلم يتضمن وعيا بما يمكن تحقيقه، فإن الترابط بين صفتي الحلم والأمل متلازمتان في الرغبة في تحقيق المرام، والعمل على تحقيق ذلك ينبغي التفكير في الانتقال مما هو يقيني معمول إلى ما هو محتمل مأمول، بعد أن نطلب من التصور الفكري ما يمكنه أن يرشد سبيل الوعي؛ لأن تصور القصد منوط بالرؤية المعرفية التي من شأنها مقاومة الضَّلال الذي يمارسه العامل المعاكس بنزعته المتفردة، وليس بمقدور الأمل إلا أن يصبح القوة الوحيدة لانتزاع حقيقة المطلوب، بعد إبعاد هيمنة التضليل، وتحرير الذات التي تعكس مفهوم الفعل الاجتماعي، من خلال تعزيز مفاهيم الترابط والتواصل والتداول. ولعل في مثل هذا ما يمكِّن الإرادة من بذل الجهد بحسب الواجب الذي تسعى إليه القيادات

[1] ابتسام القشورى: كولونيل الزبربر العودة إلي الماضي الرحيل إلي المستقبل، ملحق أخبار الأدب، الرابط، www.dar.akhbarelyom.com

[2] كولونيل الزبربر، ص 59.

الرشيدة، وبوصفها الحامل الحقيقي للإنجاز، و" بهذه اللحظات التي يصفو خلالها الذهن حدَّ الإشراق ... وبهذا الإحساس بأن الحياة لا تزال مستمرة بعنفوانها، لا تتوقف لها حركة، ليلا ولا نهارًا؛ إذ هي، بقدر ما تثْلمها الأحزان، تسخو على المظلومين بفرحٍ آتٍ دائما، حتى وإن تأجل الفرح"[1]، وإذا كان هذا الفرح القادم لا محالة من ذلك، فإنه مرتبط بالحلم الواعد، وهما معا متربطان بمسألة الإيمان بالإرادة، بوصفها قوة تسعى دوما إلى التغيير نحو الأفضل، والتحول إلى الأسمى، ولعل هذا، كما يبدو، هو فحوى مطالب كولونيل الزبربر.

وما بين الإرث المتأرجح، والإمكان المرجوح، أو بين ذاكرة الماضي، وذاكرة الحاضر، في كولونيل الزبربر، هناك تواشجٌ في الهموم في صورة استعادة التجربة ونقلها، وقد اختار الحبيب السائح طريقة السرد غير الخطي، وهو ما يأتي تحت سياق المفارقة السردية من خلال تداخل الأحداث، بحسب ما تقتضيه مصلحة التناظر بينها، إما عن طريق الاسترجاع، أو الاستذكار، أو الاستباق، من دون مراعاة التسلسل الزمني، أو المكاني. وبوسع النمط السردي غير الخطي أن يتخذ من هذه الأحداث المتناظرة نسقًا متشاكلا، بغض النظر عن وقوعها في زمن النمط الخطي الذي يستند إلى العلاقات الترتيبية، وإلى تنظيم علاقة الأجزاء بعضها ببعض. وإذا كان في هذه الطريقة غاية، فهي، هنا، فيما يتفاعل معه الحبيب السائح، ضمير المتلقي، حتى يكون استذكار الأحداث في زمانها مطابقا لواقع الحال.

واعتماد الحبيب السائح على البناء المنظومي المتواشج له ما يبرره، بوصفه ينضوي تحت ما يسمى بالنسق الذي يهتم في سياقه العام بتجميع المتقابلات، والمتناظرات، والتماثلات التي يحكمها نسق منظم بعلاقات متفاعلة، تستهدف غاية معينة، في ضوء ما هو مخطط لها، "ما يعني أن سؤال الهوية لنسق ما، يجب طرحه والإجابة عنه من داخل النسق نفسه، وليس عبر مراقب خارجي، يجب أن يستخلص النسق قراره بذاته"[2]، وهو ما لمسه بوزقزة فعلا؛ الأمر الذي اضطره إلى مغادرة جيش التحرير، والسياسة، بعد الاستقلال، احتجاجًا على التجاوزات الشنيعة من بعض المحسوبين على القيادات الثورية، " بعد الذكرى الثانية للاستقلال، غادر النقيب مولاي الحضري، المكنى بوزقزة، كل حياة لها علاقة بشئون الدولة. لاحقا، كان سيسجل أنه لن يبرأ من جرح إعدام العقيد شعابني، ذروة اللامسئولية!. خالص العبثية أيضا![3]. وفي صورة ذروة اللامسئولية، وخالص العبثية، ما يشير إلى أن ما جرى لم يكن مبررًا له، كما لم يكن

---

[1] كولونيل الزبربر، ص 59.

[2] نيكلاس لومان: مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة: يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، 2010، ص 24.

[3] كولونيل الزبربر، ص 177.

هناك ما يبرر قتال الإخوة في أيام الاستقلال، " ذلك ما أصابه بالغثيان، بالاختناق، إنه يقول لجنوده... إن قاتلتم، مجبرين، فستقاتلون إخوة لكم، ولا بد أن في الجهة المقابلة من يقول مثلي" [1]. كل ذلك وغيره كثير مما في مقاطع سرد كولونيل الزبربر يومئ إلى اعتلال منظومة الثورة في ــ بعض من ــ عمق نضالها، كما يلوح بفقد التسيير على التنظيم، وهو ما سبب الألم الذي أجبر بوزقزة على التخلص من التبعات المشينة التي خرجت عن مبادئ الثورة، نتيجة الغموض الذي بدأ يدب في نفوس الدخلاء عليها، وهذا يعني أن حسرة بوزقزة أملتها تجربة معيشة، ثم أصبحت إرثا تاريخيًا للأجيال المتعاقبة، من حيث التشابه في الذكريات والأحاسيس المقترنة بالألم، وكأن تجربة الذاكرة مع شخصية بوزقزة رمز النضال الوفي، لا تختلف عن التجربة المعيشة، إن لم تكن هي نفسها، مع جلال الحضري، وبخاصة مع ابنته طاوس، في قولها: " فالوالد، كولونيل الزبربر، قبلي، لا بد أحزنته حسرة جدي مولاي بوزقزة، وهو ينشر على حبل النسيان بعض ما لطخته حماقات إخوة السلاح" [2]، وليس أدل على ذلك مما قاله عباس محمود العقاد عن القادة والسياسيين: "ويستحل للسياسي – بل يوجب عليه – ان ينشىء الجيل المتعلم على تصديق الخرافات التي تستقيم عليها علاقات الطبقات وتنظيم الفرائض والحقوق بين أبناء كل طبقة منها على تفاوت منازلها من الجماعات البشرية. و إحدى هذه الخرافات المستباحة .. أن الناس خلقوا من معادن ثلاثة هي الذهب والفضة والنحاس، وأن الذهب معدن المشرعين والرؤساء، والفضة معدن القادة والجنود، والنحاس معدن الدهماء والمسخَّرين. وينبغي ان تنبت هذه الخرافة في الدروس والأقاصيص و أناشيد الطفولة، حتى ينشأ الجيل الذي يتلقاها كما يتلقى وحي السماء بغير تشكك أو امتعاض[3]. وهي الشِّرعة المجبولة في تاريخ البشرية.

ولعل حرص الحبيب السائح على توظيف السرد وفق مخرجات النسق الكلي المتواشج، نابع من الرغبة في استحضار مجريات الأحداث ماضيًا وحاضرًا، وكأنها جزء من هموم الحياة اليومية التي يتحكم فيها النسق المتوارث، ما يعني " أن قوة ذاتية ... تفرض نفسها في مركز البرنامج، ذاتي المركز، وتخضع تماما الفرد الذي يجد نفسه حينئذ مهوسا من الداخل. وعليه فإن الذات ..يمكن أن تصبح ذاتا ...عندما تهيمن الأنا المثالية .... داخل برنامج التضمين، يمكن أن نكون مهوسين بذلك فتهيمن هذه الفكرة التي سُجلت كالفيروس داخل البرنامج ذاتي المركز، وتتحكم بنا قسريا، بينما نعتقد أننا نكرس لهما أنفسنا

---

[1] نفسه، ص 173.

[2] نفسه، ص 171.

[3] عبَّاس محمود العقَّاد: هل السِّياسيُّون منافقون؟ الهلال، الجزء الثالث، السنة 54، مايو 1946، القاهرة نقلا عن http://maaber.com

طوعا"[1]. والمدبِّر، منها، أقرب إلى وضع من يلتزم بهذا النسق المتواري، من خلال الاستيعاب الذاتي للمطلوب، من دون إرشادات لازمة، بوصفها ممارسة قاعدية غير معلن عنها، وهذا يعني أن النزاهة في التدبُّر لا تُترَك للوعي والإخلاص، بقدر ما تضبط بالدخول في النسق غير المعلن عنه من خلال سلطة التلبية المطلقة" وتوجد هذه السلطة في تلك الحجرة (كرقيب ذاتي) مدمج داخل (الأنا)، وبما أن العاهل يحظى بكلمات بارعة تثير طاعة عمياء، فإن أوامره تُنفذ على نحو شبه سرنمي"[2]، وأن أي فعل لا يتحقق إلا بالطاعة للنسق المركب على المقاس، على نحو ما ركَّبه بعض القادة في أثناء ثورة التحرير، موضوع الرواية.

لقد سعت كولونيل الزبربر إلى البحث عن الحقيقة المنفلتة وراء النسق غير المعلن عنه، أو المغيبة عنوة، كما سعت إلى استجلاء سرٍّ ما في ذاكرة ثورة التحرير من خفايا، ومضمرات لبلوغ القصد، سواء عبر الأحداث السردية، أو عبر القيم المعنوية، المشار إليها ضمناً في الكثير من الرؤى السردية، أو عبر الشخصيات الاستكشافية، بوصفها مكونا سرديا، لها دور في الإرسالية الدلالية، من خلال تحديد صفاتها ووظائفها، وربطها بين الصورة التاريخية حينا، والخيالية حينا آخر، كما أشار إلى ذلك فيليب هامون ph.hamon[3]، أو مما يمكن أن يستنتج من دلالات الرؤية السردية بوجه عام.

وقد تجاوز الحبيب السائح ــ على غير العادة المبدعين الآخرين في الرواية الجزائرية ــ ظاهرة الاحتفاء بالذاكرة، كما تجاوز الرغبة في استكشافها بدافع رصد الأحداث والوقائع، وفي مقابل ذلك استطاع مع كولونيل الزبربر أن يصون ذاكرة الثورة من النسيان، وأن يتصدى لكل ما هو عرضة للتلاشي والاندثار، وأن يضع مآثر الذاكرة المتوارَثة في إطار صواب صدق المرجعية المصونة، بوصفها المادة الخام التي يمكن أن ينطلق منها أي باحث، أو مفكر، للوصول إلى شيء ما، قد يكون مغايرًا بحسب مستجدات المعطيات المنصفة، والتي من شأنها أن تفيد الجيل الواعد.

---

[1] ينظر، أدغار موران: النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، ط 1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث(كلمة)، 2009 ، ص 96،

[2] المرجع نفسه، ص 211.

[3] Barthes, Roland. *Poétique du récit* / R. Barthes, W. Kayser, W. Booth, Ph. Hamon. - Paris : Seuil, 1977 – P. 117

وبين هذا وذاك تبقى كولونيل الزبربر ذاكرة "**مقاوِمةً للنسيان**"، "وأن المسارات كلها تنتظر دائما من يستأنفها من جديد عند نقطة توقفها"[1]

قامة المراجع

المراجع العربية

1. أدغار موران: النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، ط 1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث(كلمة)، 2009
2. بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2009
3. الحبيب السائح: كولونيل الزبربر، دار الساقي، 2015.
4. سعيد بنكراد السرد الروائي وتجربة المعنى المركز الثقافي العربي ط1/2008
5. سعيد بنكراد، مدخل إلى السميائية السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1994
6. سليم بركان: "النسق الإديولوجي وبنية الخطاب الروائي" دراسة سوسيو بنائية لرواية (ذاكرة الجسد) للروائية أحلام مستغانمي .بحث لنيل الماجستير
7. محمد الداهي: صورة الأنا والآخرفي السرد، دار رؤيا للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 2013
8. ميري ورنوك: الذاكرة في الفلسفة والأدب، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2007
9. نيكلاس لومان: مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة: يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، 2010

المراجع الأجنبية

1. Barthes, Roland. *Poétique du récit* / R. Barthes, W. Kayser, W. Booth, Ph. Hamon. - Paris : Seuil, 1977
2. Henault (Anne) Narratoligie, sémiotique générale II ed P.U.F paris 1983
3. Jean-Jacques Wunenburger ,*L'Imagination* ,PUF, « Que sais-je Paris, 1991
4. Lacan,Jacques,Ecrits, Editions du Seuil, 1966

[1] كولونيل الزبربر، ص 259.

الدوريات

1. ج.غريماس: البنية الدلالية، ترجمة ميشال زكريا، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 19/18 السنة 1982
2. عبَّاس محمود العقَّاد: هل السِّياسيُّون منافقون؟ الهلال، الجزء الثالث، السنة 54، مايو ، القاهرة، 1946
3. يوري إيزنزويك: الفضاء المتخيل، ترجمة: عبد الرحيم حُزل، مجلة فكر ونقد، عدد 33، المغرب.

الروابط الإلكترونية:

1. ابتسام القشورى: كولونيل الزبربر العودة إلي الماضي الرحيل إلي المستقبل، ملحق أخبار الأدب، الرابط، www.dar.akhbarelyom.com
2. أمجد حسين: قراءة في الرواية، صحيفة المدى، الرابط ، http://almadapaper.net/
3. سعيد بنكراد: السيميائيات السردية، الفصل الثالث: التنظيم السطحي، موقع سعيد بنكراد، الرابط، http://www.saidbengrad.net